بسم الله الرحمن الرحيم

النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ بَيْنَ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ وَسُوءِ التَّأْوِيلِ 22 شَوَّالٍ 1447هـ

اتَّقُوا اللهَ تَحُوزُوا الْمَرَاتِبَ الْعَلِيَّةَ، وَتَسْلَمُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَبَلِيَّةٍ، وَتَنَالُوا مِنَ الرَّبِّ الْمَعِيَّةَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ نِعَمَ اللهِ عَلَيْنَا عَظِيمَةٌ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَىٰ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَمُنُّ اللهُ ﷻ بِهَا عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ نِعْمَةَ صِحَّةِ الْفَهْمِ، وَحُسْنِ الْقَصْدِ. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»: صِحَّةُ الْفَهْمِ وَحُسْنُ الْقَصْدِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَىٰ عَبْدِهِ، بَلْ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ عَطَاءً بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ وَلَا أَجَلُّ مِنْهُمَا، بَلْ هُمَا سَاقَا الْإِسْلَامِ، وَقِيَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَبِهِمَا يَأْمَنُ الْعَبْدُ طَرِيقَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، الَّذِينَ فَسَدَ قَصْدُهُمْ، وَطَرِيقُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ، وَيَصِيرُ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، الَّذِينَ حَسُنَتْ أَفْهَامُهُمْ وَقُصُودُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَصِحَّةُ الْفَهْمِ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَيَمُدُّهُ حُسْنُ الْقَصْدِ، وَتَحَرِّي الْحَقِّ، وَتَقْوَىٰ الرَّبِّ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَيَقْطَعُ مَادَّتَهُ اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَإِيثَارُ الدُّنْيَا، وَطَلَبُ مَحْمَدَةِ الْخَلْقِ، وَتَرْكُ التَّقْوَىٰ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ التَّأْوِيلَ الْفَاسِدَ بَابُ شَرٍّ كَبِيرٍ، وَلَجَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ، وَالَّذِينَ يُرِيدُونَ هَدْمَ الْإِسْلَامِ، فَمَا تَرَكُوا شَيْئًا إِلَّا أَوَّلُوهُ، وَلَوْلَا حِفْظُ اللهِ وَرِعَايَتُهُ لِهَذَا الدِّينِ لَدَرَسَتْ مَعَالِمُهُ، وَضَاعَتْ حُدُودُهُ. فَلَقَدْ أَوَّلَ الضَّالُّونَ الْوَاجِبَاتِ فَصَرَفُوهَا عَنْ وَجْهِهَا، وَهَوَّنُوا عَلَىٰ أَتْبَاعِهِمْ رَمْيَهَا وَرَاءَهُمْ

ظِهْرِيًّا. وَأَوَّلُوا الْمُحَرَّمَاتِ تَأْوِيلًا جَرَّأَ النَّاسَ عَلَىٰ ارْتِكَابِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ تَأْوِيلُهُمْ نُصُوصَ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ، وَالسَّاعَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَالْمَعَادِ وَالْحَشْرِ وَالْمِيزَانِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بِحَيْثُ فَقَدَتِ النُّصُوصُ تَأْثِيرَهَا فِي نُفُوسِ الْعِبَادِ. وَأَوَّلُوا نُصُوصَ الصِّفَاتِ تَأْوِيلًا أَضْعَفَ صِلَةَ الْعِبَادِ بِرَبِّهِمْ، وَأَفْقَدُوا النُّصُوصَ هَيْبَتَهَا لَمَّا صَرَفُوهَا عَنْ وَجْهِهَا الصَّحِيحِ بِشَتَّىٰ أَنْوَاعِ التَّأْوِيلِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ بَيَّنَ أَهْلُ الْعِلْمِ خُطُورَةَ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ؛ لِيَحْذَرَهُ الْمُسْلِمُونَ أَشَدَّ الْحَذَرِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» حَيْثُ قَالَ: فَأَصْلُ خَرَابِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَمْ يُرِدْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ بِكَلَامِهِ، وَلَا دَلَّ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُرَادُهُ، وَهَلِ اخْتَلَفَتِ الْأُمَمُ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ وَهَلْ وَقَعَتْ فِي الْأُمَّةِ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ أَوْ صَغِيرَةٌ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ فَمِنْ بَابِهِ دَخَلَ إِلَيْهَا، وَهَلْ أُرِيقَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفِتَنِ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ وَلَيْسَ هَذَا مُخْتَصًّا بِدِينِ الْإِسْلَامِ فَقَطْ، بَلْ سَائِرُ أَدْيَانِ الرُّسُلِ لَمْ تَزَلْ عَلَىٰ الِاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ حَتَّىٰ دَخَلَهَا التَّأْوِيلُ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ الْحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِهِ عَلَىٰ الطَّحَاوِيَّةِ»: وَكَمْ جَنَىٰ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَىٰ الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ جِنَايَةٍ، فَهَلْ قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ! وَكَذَا مَا جَرَىٰ فِي يَوْمِ الْجَمَلِ، وَصِفِّينَ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْحَرَّةِ؟ وَهَلْ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ التَّأْوِيلَ الْفَاسِدَ أَعْظَمُ أُصُولِ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ؛ حَيْثُ صَارَ ذَرِيعَةً لِغُلَاةِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ فِي تَأْوِيلِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَىٰ غَيْرِ مَقْصُودِهَا، أَوْ إِسْقَاطِهَا، أَوْ تَأْوِيلِ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَصَارَ ذَرِيعَةً لِلْمُنْحَلِّينَ

وَالْمَاجِنِينَ وَالْمُفْسِدِينَ؛ مِنْ أَجْلِ التَّحَلُّلِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الشَّرْعِيَّةِ؛ مِنْ أَجْلِ التَّمَتُّعِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا، فَالتَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ طَرِيقٌ لِلْإِلْحَادِ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَعَدٍّ لِحُدُودِهِ، وَسُلُوكُ طَرِيقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ»: وَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوِ الْحَدِيثَ وَتَأَوَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِ التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللهِ، مُلْحِدٌ فِي آيَاتِ اللهِ، مُحَرِّفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَهَذَا فَتْحٌ لِبَابِ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ، وَهُوَ مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الضَّابِطِ بَيْنَ التَّأْوِيلِ الصَّحِيحِ وَالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ. وَقَدْ بَيَّنَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: «الصَّوَاعِقِ الْمُرْسَلَةِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعَطِّلَةِ»، فَقَالَ: وَبِالْجُمْلَةِ فَالتَّأْوِيلُ الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، وَجَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ وَيُطَابِقُهَا، هُوَ التَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ، وَالتَّأْوِيلُ الَّذِي يُخَالِفُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ وَجَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ هُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ بَابِ الْخَبَرِ وَالْأَمْرِ فِي ذَلِكَ، وَكُلُّ تَأْوِيلٍ وَافَقَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَهُوَ الْمَقْبُولُ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ الْمَرْدُودُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِآفَةِ سُوءِ الْفَهْمِ أَسْبَابًا كَثِيرَةً، وَمِنْهَا: الْجَهْلُ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَسُوءُ النِّيَّةِ، وَخُبْثُ الطَّوِيَّةِ، وَسُوءُ الظَّنِّ، وَعَدَمُ مُرَاعَاةِ حَالِ النَّاسِ، وَالتَّسْلِيمُ بِمَا يَنْقُلُهُ الْمُغْتَابُونَ وَالنَّمَّامُونَ، وَالْحُكْمُ عَلَىٰ نِيَّاتِ النَّاسِ، وَعَدَمُ التَّأَمُّلِ فِي كَلَامِ الْمُتَحَدِّثِ، مَعَ إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِهِ.

عِبَادَ اللهِ: مِنْ صُوَرِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ: فِكْرُ الْخَوَارِجِ فِي كُلِّ عَصْرٍ. وَتَكْمُنُ خُطُورَةُ مَنْهَجِ الْخَوَارِجِ فِي كَوْنِهِ يُمَثِّلُ انْحِرَافًا فِكْرِيًّا، يَتَجَاوَزُ مُجَرَّدَ الْمَعْصِيَةِ لِيَصِلَ إِلَىٰ

اسْتِحْلَالِ الدِّمَاءِ، تَظْهَرُ هَذِهِ الْخُطُورَةُ فِي عِدَّةِ جَوَانِبَ رَئِيسِيَّةٍ:

الْأَوَّلُ: يَعْتَقِدُ الْخَوَارِجُ كُفْرَ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ؛ مِمَّا يُؤَدِّي بِهِمْ إِلَىٰ وَصْفِ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكُفْرِ.

الثَّانِي: يَنْتُجُ عَنْ هَذَا التَّكْفِيرِ اسْتِحْلَالُ دِمَاءِ وَأَمْوَالِ مَنْ يُخَالِفُهُمْ، وَهُوَ مَا يُفَسِّرُ تَارِيخَهُمُ الطَّوِيلِ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرْكِ الْكُفَّارِ.

الثَّالِثُ: التَّمَرُّدُ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ وَإِثَارَةُ الْفِتَنِ، وَالْخُرُوجُ عَلَىٰ الْوُلَاةِ. وَيُعَدُّ الْخُرُوجُ عَلَىٰ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَمُفَارَقَةُ الْجَمَاعَةِ رُكْنًا أَسَاسِيًّا فِي مُعْتَقَدِهِمُ الْفَاسِدِ، مِمَّا يُزَعْزِعُ أَمْنَ وَاسْتِقْرَارَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

الرَّابِعُ: شَقُّ عَصَا الطَّاعَةِ. فَهُمْ يَرْفُضُونَ الصَّبْرَ عَلَىٰ الْحُكَّامِ، بَلْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِوُلَاةٍ شَرْعِيِّينَ؛ وَيَسْعَوْنَ لِتَفْكِيكِ الْوِحْدَةِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ؛ مِمَّا يَفْتَحُ الْبَابَ لِلْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ، وَالنِّزَاعَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ.

الْخَامِسُ: سُوءُ الْفَهْمِ، وَالْجَهْلُ بِالدِّينِ. حَيْثُ إِنَّهُمْ يَنْطَلِقُونَ إِلَىٰ آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَيَجْعَلُونَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ؛ نَتِيجَةَ نَقْصِ فِقْهِهِمْ، وَسُوءِ تَدَبُّرِهِمْ.

السَّادِسُ: التَّلْبِيسُ عَلَىٰ الشَّبَابِ وَالدَّهْمَاءِ. وَذَلِكَ بِاسْتِخْدَامِ الشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةِ، مِثْلِ قَوْلِهِمْ: «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»، لَكِنَّهُمْ يَسْتَخْدِمُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا؛ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ أَهْدَافٍ تَدْمِيرِيَّةٍ.

السَّابِعُ: الِانْدِفَاعُ وَالْحَمَاسُ الْمُفْرِطُ. وَقَدْ وَصَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُمْ: «أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ»، وَهَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ طَيْشِهِمْ، وَعَدَمِ رَجَاحَةِ عُقُولِهِمْ، مَعَ حَدَاثَةِ سِنِّهِمْ.

الثَّامِنُ: اسْتِمْرَارِيَّةُ الْفِكْرِ. هَذَا الْفِكْرُ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِرْقَةٍ تَارِيخِيَّةٍ انْتَهَتْ، بَلْ هُوَ مَنْهَجٌ يَتَكَرَّرُ ظُهُورُهُ فِي صُوَرٍ وَجَمَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ عَبْرَ الْعُصُورِ، مِمَّا يَتَطَلَّبُ يَقَظَةً دَائِمَةً لِمُوَاجَهَةِ جُذُورِهِ الْفِكْرِيَّةِ.